

دلائل الإعجاز

على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (قوله تعالى : (لا يؤمنون) تأكيد لقوله : (سواء علايتهم أأنذرتهم أم لم لم تؤذرتهم) وقوله : (ختم على قلوبهم وعلى سمعهم) تأكيد ثانٍ أبلغ من الأول لأن من كان حاله إذا أنذرت مثل حاله إذا لم يندرت كان في غاية الجهل وكان مطبوعاً على فلايته لا محالة . وكذلك قوله عز وجل : (ومن الناس من يقول آمنا بالله باليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله) إنما قال (يخادعون) ولم يقل : ويخادعون لأن هذه المخادعة ليست شيئاً غير قولهم : آمنا من غير أن يكونوا مؤمنين . فهو إذاً كلام أككد به كلام آخر هو في معناه وليس شيئاً سواه وهكذا قوله عز وجل : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلاوا إلى شياطينهم قالوا إنما معكم إنا لنؤمن بالنبى ولم نترك اليهودية وقولهم : (إنما نحن مستهزون) خبر بهذا المعنى بعينه لأن لا فرق بين أن يقولوا : إنما لم نقل ما قلناه من أننا آمننا إلا استهزاء . وبين أن يقولوا : إنما لم نخرج من دينكم وإنما معكم . بل هما في حكم الشيء الواحد . فصار كأنهم قالوا : إنما معكم لم نفارقكم . فكما لا يكون إنا لم نفارقكم شيئاً غير أننا معكم كذلك لا يكون إنما نحن مستهزون غير فاعرفه .

ومن الواضح البيّن في هذا المعنى قوله تعالى : (وإذا تلى آياته آياتنا وللى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً) لم يأت معطوفاً نحو وكان في أذنيه وقراً لأن المقصود من التشبيه بمن في أذنيه وقراً هو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع إلا أن الثاني أبلغ وأكد في الذي أريد . وذلك أن المعنى في التشبيهين جميعاً أن يندفي أن يكون لتلاوة ما تلى عليه من الآيات فائدة معه ويكون لها تأثير فيه وأن يجعل حاله إذا تلى عليه كحالها إذا لم تلى . ولا شبهة في أن التشبيه بمن في أذنيه وقراً أبلغ وأكد في جعله كذلك من حيث كان من لا يصح منه السمع - وإن أراد ذلك أبعد من أن يكون لتلاوة ما يلى عليه